تاريخ الخطابة عند اليونان والعرب

د/ شاكر عبد القادر
(ج. ابن خلدون -ثيارت)

ملخص المقـال

الخطابة والخطبة والخطاب، وهي الكلام المنثور المسجوع أو المزدوج أو المرسل الـذي يكون القصد منه التأثير، والإقناع. والخطابة تعد مظهرا من مظاهر التحضر الاجتماعي الراقي، وهي لاتخص أمة معينة ، فكل مجتمع له خطابته وخطباؤه.

ظهرت الخطابة كعلم له أصوله وقواعده وقوانينه في أثيما عند المجتمع اليوناني، وبلغـت أوج قمتها من حيث التأسيس والتنظير عند الفيلسـوف أرسـطو384-322ق.م، الـذي يرجع إليه الفضل في تحديد أنواع الخطابة إلى ثلاثة أنواع: 1- القضائية، 2- والاستدلالية، 3- والشورية. ولكل نوع من هذه الأنواع خصائصها وأهدافها. وتعتمد الخطابة على عنصـر التأثير والإقناع مع مطابقة الحال. كما اشترط المنظرون لهذا الفن شروطا في الخطبة وأخرى في الخطيب وفي المتلقي.

وعرف العرب الخطابة منذ الجاهلية، وعند مـا جـاء الإسـلام تنوعـت أغراضـها وتعددت أنواعها، بسبب الدين الجديد الذي أمدّها بألفاظ جديـدة، ومعـاني كـثيرة وخيـال واسع، وازدادت توسعا منذ العصر الأموي وبعده لعوامـل كـثيرة ، فحافظـت علـى بعـض الخصائص المقبولة ، وتخلت عن مالا يتناسب والإسلام ، كمـا اتسـمت الخطابـة الإسـلامية بأسلوب القرآن الكريم وفصاحة لغته ، مع توسع القاموس اللغوي الخطابي للخطيـب، ومهمـا

يكن فإن الخطابة على الرغم من قدم تاريخها فإنها مازالت قائمة تؤدي وظيفتها التبليغية التي أنشئت من أجلها في كلّ المجتمعات، فلايمكن الاستغناء عنها في كافة مجالات الحياة.

نتناول في هذا المقال جنسا من الأجناس الأدبية الفنية القديمة التي بقيت آثارا شاهدا على الأمم المتحضرة ، التي سجّلت مآثرها من خلال تراثها الفكري والأدبي ، ومن بين هذه الآثار الخِطابة وما لها من قيم تربوية واجتماعية وخلقية نبيلة ، زيادة على ما تتميّز به من جمال وصنعة في بنائها من حيث كونها إحدى الأجناس الأدبية .

الخطاب، والخطابة معجميا.

كلمة الخِطاب في الموروث المعجمي ، ثم في كلام الله – جلّ شأنه –.إنّ لفظة "خِطاب" جذره " خَطَبَ". قال الزّمخشري: خَطَبَ،خاطبه أحسن الخِطاب، وهو المواجهة بالكلام ، وخَطَبَ الْخَطِيبُ خطبة حسنة ، وخطب الخاطب خطبة جميلة.[1]، والخِطابةُ: هي تدليس المستمعين بالكلام . والخِطابُ: توجيه الكلام إلى جهة القصد التّخاطبِ.

وقال ابن منظور:خَطَبَ، والخطبُ: الشّأن أو الأمرُ، صَغُرَ أو عَظُمَ. وقيل هو سبب الأمر ، يقال ما خطبك؟ أي: ما أمرك؟ والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشّأن و الحال. والخِطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وخطب الخطيب على المنبر، واسم للكلام:الخطبة، والخطبة مصدر الخطيب،لا يجوز إلاّ على وجه واحد، وهو أنّ الخطبة اسم للكلام ، الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر. والخطبة عند العرب: الكلام المنثورالمسجّع ونحوه . ورجل خطيب:حَسَنُ الخطبة، وجمع الخطيب خطباء، وخَطُبَ بالضّم، خطَابة، بالفتح: صار خطيبا. [2]

بينما وردت كلمة " خطب" في التنزيل المحكم قوله تعالى :(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ **الْخِطَابِ**) [3]، وقوله:(رَّبُّ السَّمواتِ والأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ **خِطَابًا**).[4]

وبعد هذه الإشارة المختصرة المتعلّقة بالتّعريف اللّغوي لكلمة الخطاب، نتناول **الخطابة** وما يتعلّق بها عبر تاريخ الإنسانية ، والتنقيب عن الخطابة ثانيا من حيث الجانب الاصطلاحي ، والتاريخي منذ تأسيس هذا الفنّ إلى وقتنا الحاضر. عند المجتمع اليوناني و الروماني، و عند العرب، وأهمّ مؤسسها عند اليونان، ثمّ عند العرب. و البحث عن أنواع الخطابة عند هذه المجتمعات، وخصائصها الفنية وقيمتها الجمالية، وعلاقتها بالبلاغة، وعلاقة البلاغة بها ، وقيمة البلاغة في رقي الخطابة وازدهارها،وبعض مشاهير الخطباء اليونان والرومان وبخاصة العرب.

الخطابة من الوجهة الاصطلاحية

بعد الإشارة إلى مدلول الخطابة معجميا، وَوُرُودُهَا في التنزيل المحكم في صدر الصفحة السابقة، ننتقل إلى تعريفها الاصطلاحي. فالخطابة عند الحكماء مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن في أيّ موضوع يراد تبليغه، والإقناع حمل السّامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو التّرك.[5] و هي عند أرسطو:القدرة على الكشف نظريا في كلّ حالة من الحالات، عن وسائل الإقناع الخاصة بتلك الحالة، وقد يستطاع الإقناع بالحقّ أو بالباطل.[6]

تاريخ الخطابة

تاريخ الخطابة ضارب جذوره في أعماق تاريخ الإنسانية، وإنها مخلوقة منذ أن وجد البشر على سطح هذا الكوكب ، والبحث عنها كان قبل الجاهلية والإسلام ، إذ ظهرت مع الأنبياء والرّسل عليهم السلام ، وقد مكنهم الله من فصاحة اللسان وفصل الخطاب لتبليغ الدعوة لتوحيده وعبادته، وإرشاد النّاس إلى الصراط المستقيم ، وإلى الوحدة والتواد فيما بينهم.

وهي جزء من حديثه اليومي الذي يتم التواصل بواسطته بينه وبين أبناء جنسه. لقد ظهرت الخطابة كفن أدبي عند الشعوب القديمة المتحضرة ،ومنها المجتمع اليوناني. تشير الدّراسات إلى أنّ الخطابة برزت معالمها مع القرن السادس قبل الميلاد كفن منافس للشعر الغنائي والتمثيلي، وكان للفلاسفة اليونان وبخاصة أفلاطون وتلميذه أرسطو هم الذين عرفوا لنا

الخطابة وفنونها ، وتصنيفها من بين العلوم التي كانت قائمة آنـذاك، وأغراضـها ، وأنواعهـا ، وقيمها، وأسسها الفنية.بالرّغم من أنّ السوفسطائيين كان لهم الدور الكـبير في تأسـيس هـذا الجنس الأدبي منذ القرن السادس قبل الميلاد، وكانوا يعلّمون الشّباب في أثينـا التّغلـب علـى خصومهم في ميدان السّبق الكلامي، وكيف يغالطونهم؟وكيف يلبسون عليهم الحقائق ؟ ويمـر نونهم على القول المبين ، والإلقاء المحكم . وكان منهم:

بريكـــوس القوســـي (ت430 ق.م)، وبروتـــاغوروراس(485-411ق.م)، وجورجياس(485-380 ق.م).[7]

وتشير الدراسات إلى أنّ إلياذة هوميروس للشاعر اليوناني الـذي عـاش في القـرن العاشر قبل الميلاد قد تضمّنت خطبا كثيرة أوردها على ألسنة الآلهة والأبطال.[8]

ما يثبت قدم الخطابة وهو تصدي أفلاطون للسوفسطائيين الذين كـانوا يشـكّكون النّاس ويقظونهم من غاشية التّقليد والجمود ويعلّمونهم الخطابـة وأسـاليب البيـان.[9] وكـان للفلاسفة اليونان الدور الكبير في التنظير للخطابة التي بلغت ذروتها من النّضج الفنّي على يدي أرسطو. وهوا لذي نقف على أهم آثاره، وما خصّصه من دراسة لفن الخطابة.

وقد بلغت الخطابة قمّة نضجها، واكتمال قواعدها وأسس بنائها على يدي الفيلسـوف اليوناني الكبير أرسطو(384-322ق.م) صاحب كتاب نقد الشعر، و فن الخطابة. فجمـع شارد هذا الفنّ، وأشتاته في كتاب ضمّنه قواعد هذه الصّناعة، وسماه " الخطابة" وهو الكتـاب الذي عرّبه بشر بن متى ، ولخّصه ابن رشد، وأخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفـارابي.[10]و كان قبل ذلك التاريخ الشعر القصصي أو شعر الملاحم هو المهيمن على البيئة اليونانيـة بين القرن الحادي عشر والقرن الثامن قبل الميلاد، والشعر الغنائي هو الأخر بسـط رداءه علـى اليونان من القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم الشعر التمثيلي خلال القرنين.الخامس والرّابع قبل الميلاد. وفي هذه المرحلة الأخيرة أخذ فن الخطابة يظهر للوجود ويسـتقطب ألاف المحبين والأنصار والمؤيدين والمتذوقين لهذا الفن الجديد الذي لقي معارضة شـديدة مـن بعـض

الفلاسفة أمثال سقراط وتلميذه أفلاطون ، وبعض المناطقة. فحين رفع لواءه في سماء أثينا السفسطائيون منذ القرن السادس قبل الميلاد، و كانوا يمتازون بالصّنعة والكلام ، وجمال العبارات والألفاظ والبلاغة ، والعمل على النّهوض بالنّثر الفني في المقام الأوّل ، إلى أن بلغت الخطابة قمّة النّضج و التقعيد والتّنظير على يد أرسطو في كتابه فنّ الخطابة. (11)

وقد خالف هذا الفيلسوف كلّ من سبقه في الحديث عن الخطابة، فبيّن أنواعها وأسسها الفنية، وصلتها بالمنطق الصّحيح، وبذلك ظهر فضله على كلّ من تناولوا هذا الفنّ.(12) وفي عهده ازدهرت الخطابة وعظمت عظمة فنّ الشعر، وهذا يرجع لعدة عوامل منها:حرية الرّأي والتعبير والديمقراطية التي كان المجتمع اليوناني يتمتع بها في هذه الحقبة الزمنية ، مما رفع مكانة الخطيب إلى درجة رفيعة ؛ لأنّه الرجل الذي يستطيع قيادة الجماهير وتوجيهها إلى قوة بيانه ونصاعة حجته ، وحسن قوله، وإقناعه المنطقي، والبراهين والاستدلال الصحيح الذي يوظفه. مما مكن الخطيب أن يحلّ مكان الشاعر والفيلسوف في زمان أصبحت فيه الحطابة والخطيب فوق كلّ اعتبار.(13).

أنواع الخطابة عند الأثينيين:

تصنّف الخطابة من العلوم الفنيّة أو الشّعرية من حيث إيقاعها في النّفس أو من حيث قوة تأثيرها في الخيال أو من حيث إقناع العقل بها ، وهنا ترتّب الخطابة إلى جانب الشّعر، والجدل في صفّ واحد. وموضوعها عنده هي : أقوال الإنسان التي تثير الخيال. (14)

كان لأرسطو الفضل الكبير في تحديد أنواع الخطابة، وهي: ثلاثة أنواع، أو أقسام، وذلك تبعا لأصول الزّمان. من ماض، وحاضر، ومستقبل. وهي بحسب التسلسل الزمني :

1 – **الخطابة القضائية.** وتخصّ الزمن الماضي والغاية منها الدفاع عن متّهم بتبرئته أو الحكم عليه بإدانته، وهي من اختصاص المحاكم ورجال النّيابة. وقد ساعد على ازدهارها أنّ النظام اليوناني كان يقضي بألا ينوب المحامون عن أرباب القضايا في الدّفاع أمام المحاكم ، ولما

كان أصحاب هذه القضايا لايحسنون الدّفاع عن أنفسهم ، فكانوا يلجأ ون إلى الخطباء ليعدوا لهم ما يخطبون به أمام العدالة.[15]

2- النوع الثاني وهي الخطابة :**التّثبيتية أو البيانية**، أو **الاستدلالية**. وتختص بالزمن الحاضر لِمَدْحٍ فترغيبٌ أو ذمّ فتنفيرٌ،وسميت استدلالية على ما يسلق فيها من مدح أو ذمّ، وغايتها بيان الجميل أو القبيح من الأفعال.

3 – النوع الثالث من الخطابة وهي: **الشورية**،أو **السياسية**. وهذا النّوع من الخطابة يتعلّق بالمستقبل لحمل السامعين على جلب النّفع للأمّة أو دفع الضّر عنها، أو للحضّ على الحرب أو السّلم، وسنّ القوانين التي تسير عليها الأمة.بل هذا النوع من الخطابة يخصّ السياسة العامة للدولة وللبلاد وما يخص أمورها الدّاخلية والخارجية. كان هذا التقسيم الأرسطي نموذجا يحتذي به في كلّ زمان وفي كلّ مكان من أقطار المعمورة، منذ أن شرّعه هذا الفيلسوف إلى الوقت الرّاهن.[16]

و لم يقتصر عمل اليونانيين على تحديد أنواع الخطابة، بل تعدى عملهم إلى الغوص في دراسة بنائها الفني، وهو الأهم فيها ؛لأنّ بناء الفني جدّ مهم ، وبفضلة تحقق الخطابة غايتها ، والقصد الذي وجدت من أجله ، وما يشترط في الخطيب الذي يعتبر عنصرا مؤثرا في جمهور السامعين من حيث صفاته الجسدية والنفسية والإلقائية.

وبعد تناول أنواع الخطابة فمن الأحسن نتطرّق إلى خصائصها، و فنّياتها وحيثياتها وتفاصلها، مع التّركيز على الخطابة وعلاقتها بالبلاغة. وذلك قبل الانتقال إلى تاريخ الخطابة عند العرب.تشير الدراسات التي أولت اهتمامها للخطابة اليونانية إلى أنّ قال بدوي طبانة :" ومن أجل ذلك كلّه ارتبط عندهم علم البلاغة ، ولذلك يمكن القول بأنّ البلاغة وقواعدها وفنونها الكثيرة مدينة إلى حدّ كبير للخطابة والخطباء ، الذين ازدهر الفنّ الأدبي على أيديهم ، وجعلوا النّجاح في الخطابة يعتمد على فصاحة اللسان والقدرة على إيراد الحجج التي تؤثر في

النّفوس ، ليكون من هذا التأثير وسيلة لإقناع المقول، بصرف النظر عن الأدلة اليقينية، والبراهين المنطقية ".[17]

الخطاب، و صفة من الصفات التي يتوجب توفيرها في الخطابة ، مع مراعاة مقتضى الحال ، ومراعاة أحوال المتلقين والسامعين من الناس وفق طبقاتهم وثقافاتهم وعلى ذلك يستحسن اختيار الألفاظ والأساليب الملائمة لكل طبقة ، فلكلّ مقام مقالا، ولا ريب في أن يعدّ الخطيب خطابا يناسب كلّ طبقة بما فيه طبقة عامة المجتمع من حيث الأسلوب المعتمد في الخطبة، وذلك إذا أراد الخطيب أن تكون خطبته ذات تأثير قوي في النفوس؛ ومع الطبقة المثقفة والعليا هنا يتوجب توظيف ما أمكن من الصنعة اللفظية ،المتمثلة في اختيار المفردات الملائمة لمقام الحدث، ثمّ التركيز على توظيف أفضل الأساليب البلاغية ؛ لأنّ هي السحر الجمالي في فنّ الخطاب،من اعتماد المجاز ، والاستعارة،والتشبيه؛ وهذه الأساليب تكون أشد وقعا على النفوس، وأكثر تأثيرا على العقول والعواطف ، وتعكس قوة ومكانة الخطيب وخطبته، ولاسيما في الخطب الحماسية.

ما يتوجب على الخطيب

اشترط فلاسفة اليونان في الخطيب أن يراعي – عند إلقاء خطبته- مقتضى الحال، أي : أن يدرك ويعي تمام الوعي إلى من يوجّه خطبته ، والقصد هنا طبقة المستمعين ، فإذا كانت وظيفة الخطابة هي قيادة النّفوس لمعرفة الحقيقة ، وهنا ينبغي على الخطيب أن يعي طبائع وأخلاق المستمعين ليكيف الخطبة على حسب طبائعهم ، فإذا كان على درجة من الكفاءة والمقدرة في الغوص في أعماق تلك الفئات الاجتماعية، وجب عليه أن يتكلّم ، وكيف أن يتكلّم ، ومتى يميل إلى الإيجاز ،أو إلى الإطالة والإطناب وهذا ما يتطلب منه في زماننا هذا أن يكون يكون على دراية بعلم النفس وعلم الاجتماع. .[18]

مشاهير خطباء اليونان والرومان

أشهر خطباء اليونان هم: إيسوقراطيس، وبروديكوس، وبرتاغوراس معاصره ، ثم غورجياس في سنة (380ف.م).ومن الفلاسفة أفلاطون ، وأرسطو زعيما فلاسفة اليونان [19].

بعد ما تناولنا تاريخ الخطابة، وأنواعها، وأهميتها في حياة المجتمعات، معتمدين على الخطابة عند المجتمع اليوناني المؤسس والمنظر الحقيقي لهذا الجنس الأدبي الرائع، ننتقل إلى تاريخ الخطابة عندا لعرب قبل وبعد الإسلام، وخصائصها الفنية والجمالية في ظل الإسلام. وقيام الدراسات البلاغية خدمة للدراسات القرآنية، واللغوية.

الخطابة عند العرب قبل الإسلام:

عرف العرب هذا الجنس الأدبي في الجاهلية، وفي الإسلام زاد ت أغراضها، وتوسّعت مجالاتها بسبب الدّين الجديد ، ونزول القرآن الكريم الذي أثرى لغة العرب من حيث غناه بألفاظ جديدة ، وأساليب خيالية رائعة، كان القرآن الكريم سندا لهم يرجعون إليه عند حاجتهم إلى الشواهد في تفسير كلام الله ،أو الاقتباس من ألفاظه وصوره وجمال بيانه عند تنظيم خطبهم ، وكتابة رسائلهم. وقد تميّزت الخطابة بخصائص عما كانت عليه في الجاهلية. وما يثبت ذلك ما نقلته لنا أهم المصادر في هذا الشأن.قال أبو عمر بن العلاء(ت154هـ) كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب. فلمّا كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرّعوا إلى أعراض النّاس ، صار الخطيب عندهم فوق الشّاعر).[20] هذا دليل يثبت مكانة الخطيب عند العرب بفضل خطبته في الجاهلية، وحتى بعد الإسلام، و يدلّ على أنّ لكلّ أمة خطابتها وخطباؤها ، قبل أن يعرفوا ترجمتها عن اليونان في القرن الثالث الهجري من قبل إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي الطّبيب المعروف (ت298هـ) الذي ينتسب إلى مدرسة جند يسابور، رحل إلى بلاد الروم ، وتعلم اليونانية ، وكان يجيد بجانبها السّريالية والفارسية والعربية ،هو وابنه إسحاق ، وابن أخته حبيش ، كنوا يترجمون معا

تحت ما يسمى الكلام على "سوفسطيقا" أي : الخطابة، وقيل نقلها ابن ناعمة ، وأبو بشر متى إلى السرياني ، ونقله يحيى بن عدي إلى، من تيوفيلي ، إلى العربي .[21]

ووصلتنا بعض النماذج من تلك الخطب الجاهلية التي تدلّ على قوة بنائها وتخير ألفاظها، وحسن عباراتها، وفصاحة لغتها، وظهور الصنعة عليها من الميل إلى السجع، وقصر جملها، وهي لا تخلو من البيان. كان أصحابها يستخدمونها في منفراتهم ومفاخرهم ، وفي النّصح والإرشاد ، وفي الحث على القتال يوم زحف الأعداء، وفي الصلح والسلم ، وفي الأحوال الاجتماعية كالزواج.[22]

الخطباء العرب

وخطباء العرب في الجاهلية والإسلام كثيرون جدّا ،ليس من السهل الإلمام بهم جميعا ، وإنّما نقف على ذكر عينات من مشاهير هؤلائي الخطباء . من الجاهليين قس بن ساعد الأيادي، توفي حوالي 600م ، أسقف نجران ، وخطيبها وحكيمها ، وهو الذي قال فيه الرسول- صلى الله عليه وسلم – رأيته في سوق عكاظ وهو يقول : " أيّها النّاس اجتمعوا واسمعوا وعوا. من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلّ ماهو آت آت". [23]وكان فيهم من يجمع بين الشعر والخطابة والبلاغة أمثال: الشاعر عمرو بن كلثوم، شاعر وخطيب تغلب، وهَيْذَان بن شيخ ، وقيس بن سنان ، ويقال إنّه خطب في داحس والغبراء يوما إلى اللّيل، وكذلك اشتهرت بالخطابة قبيلة تميم وإياد على سائر القبائل العربية .[24]

الخطابة في صدر الإسلام وبعده

حينما جاء الإسلام عظم شأن الخطابة، وارتقت مكانتها بفضل الكتاب المبين والدين القويم والسنة الطاهرة. وتنوعت أغراضها من خطابة دينية، وسياسية، وخطابة المحافل، و المواعظ والزهد، والزواج، والمناظرات. وكان ذلك بفضل القرآن الكريم، وإعجازه وفصاحته وقوة بيانه التي لاتباريها أيّ قوة ، وببلاغته التي أبهرت عقول العرب ، مع غزارة الفصاحة وقوة

الأسلوب ومتانة. فكانت حاجتهم إلى الإسلام أشد للدخول في الدين الجديد، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم- أخطب العرب قاطبة، ثم الخلفاء الرّاشدون، والصحابة والتابعون، وأمراء الجيوش وولاة الأمصار، والقضاة من الخطباء، غير أنّ بعضهم كان أخطب من بعض.

ومن أجود خطباء بني أمّية بعد الرسول والخلفاء:معاوية وزياد بن أبيه، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وقطر بن الفجاءة وغيرهم . [25]وقد ارتقت الخطابة في العصر الأموي ارتقاءً كبيرا.

وهكذا ظلت الخطابة على درجة عالية من القوة والفصاحة والبلاغة إلى نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث، وبرز خطباء مصاقع من بني هاشم أمثال: المهدي، هارون الرشيد وابنه المأمون. ثم دخلت الخطابة في سبات عميق لأسباب كثيرة منها كثرة اختلاط الأعاجم بالعرب ، وتقربهم من قصور الأمراء والولاة ، وتوليهم مهام إدارية عالية كالوزارة ، والحجابة ، وقيادة الجيش ، وقيادة الولايات ، والمراسيم ، كانت هذه جملة من العوامل التي أدت إلى ضعف الخطابة وغياب الخطباء، إلا ما يتعلّق بالخطب الدينية ، والمناسبات، والزواج ، وما إلى ذلك .

إلى أن جاء عصر النهضة الفكرية والأدبية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،فأعادت الخطابة نشاطها من حيث تعدد أغراضها، وقوة بنائها، وحسن أسلوبها، والفضل يعود إلى جهود بعض الإصلاحيين من العالم الإسلامي والعربي. كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وغيرهما. ولعل الفضل يرجع كذلك إلى النّهضة الفكرية والاجتماعية التي عرفتها مصر وبلاد الشام، ودور الحركة العرابية، وخطبائها أمثال :عبد الله النّديم . [26]

مقاربة بين الخطابة الجاهلية والخطابة الإسلامية.

اختلفت الخطابة في الجاهلية عن مثيلتها في الإسلام في الآتي:

الاختلاف في الأغراض وفي المعاني، والاعتماد على السّجع اعتمادا كبيرا، مع إدماجهم الصور البيانية من تشبيهات واستعارات، ودمجهم التجويد والتحبير، وفي الإسلام ظلّ أسلوبها على ما هي عليه في الشعر الجاهلي، قصر في الخطب و إيجاز في الجمل مع شيء كبير من الموازنة، وشيء قليل من السّجع، يضاف إلى ذلك اقتباس أو تضمين للأمثال والأشعار.

وامتازت الخطبة في الإسلام عن الجاهلية كونها عرفت الخطبة الدينية التي لم تكن في الجاهلية مثل: خطبة الجمعة والعيدين والحج والوعظ والإرشاد. صفاء ألفاظها وسهولة عباراتها ومتانة أساليبها وتجنيبها سجع الكهان، وقلّة القصد فيها إلى سرد الحكم القصيرة الدقيقة المناسبة وغير المناسبة خلافا لما كانت عليه في الجاهلية. ومحاكاتها أسلوب القرآن الحكيم في الإقناع واستمدادها من آياته. بداءاتها بحمد الله والثناء عليه عزّ وجلّ، والصلاة على النّبي – صلى الله عليه وسلّم – وكانت أهداف الخطابة التأثير البلاغي من طريق الألفاظ والتراكيب التي تمس العاطفة وتذكر بالمثل العليا، وتذكي شعلة الدين في النفوس في الجموع الحاشدة ، وهذا ما لم يكن في الخطابة قبل الإسلام .[27] وزاد في الخطبة الإسلامية الاستشهاد بآيات من ألقرآن الكريم ، وبأحاديث الرسول– صلى الله عليه وسلم–.

وخلاصة الكلام فإن الخطابة في صدر الإسلام امتازت بالفصاحة والبلاغة، آخذة أسلوبا حيّا متينا مؤثرا مع إحكام في الصنعة وحسن وجودة افتتاح واختتام للخطبة.

كما بقيت كثرة الأسجاع في خطب المفاخرة والمنافرة في الجاهلية ،وسار عليها الخطباء بعد الإسلام . غير أنّ الأسلوب الخطابي غرضه هو أن يتوصل فيه الخطيب إلى إثبات الغرض المقصود، وتمكّنه في نفس السامع. وأهم ما ميّز الخطابة العربية في الجاهلية وفي الإسلام، كانت تطول في خطب المنافرات والغزوات والصّلح والسّلم ، وتقصر تماشيا مع الحدث، كخطبة النكاح والصلح. وإجابة قيس بن خارجة بن سنان– وهو رجل طاعن في السن– عن سؤال في شأن حمّالة داحس والغبراء. فقال: " عندي قرى كلّ نازل، ورضا كلّ ساخط، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتّواصل وأنهى فيها عن التّقاطع. قالوا: فخطب يوما إلى اللّيل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى". [28]

وكان منهم الخطيب الهرم والكهل والشاب، والرجل والمرأة، بل كانت بعض الأسر تتوارثها أبا عن جدّ، مثل معاوية وابنه، وسعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أميّة وابنه، وعمرو بن سعيد خطيب ابن خطيب ابن خطيب.[29] كلّ هذا يدلّ على أن الخطابة العربية لم تكن تخص شخصا ما بعينه كبيرا أو صغيرا ذكرا أو غير ذكر. بل كان حتى فتيانهم خطباء، وتلك فطرة فيهم ألهمهم الله إياها. وما يثبت إلهام بعض شبابه هذا الفن ، ما رواه الجاحظ عن الهيثم بن عدي عن عمران بن حطّان انّه قال:" خطبت خطبة عند زياد أو ابن زياد فأعجب بها زياد وشهدها عمي وأبي . ثمّ إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن". [30]

ومن النساء الخطيبات ذوات الفصاحة واللسن مثل : هند بنت الخس،وهي الزّرقاء،وجمعة بنت حابس، ووالدها من قبيلة إياد. [31]

كانت هذه جملة من الشواهد المتعلّقة بالخطابة الإسلامية وبالخطباء على مختلف أعمارهم ، وهو ما يدلّ على أهمية الخطابة عند العرب ، ووظيفتها التبليغية المقنعة للغرض المقصود في جميع صورها وأغراها على الرغم من أنّهم لم يبدعوا في الخطابة القضائية مثل الإغريق من قبل.

مراجـــع البحث

المصحف الشريف برواية حفص عن نافع

1- أساس البلاغة، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت لبنان.
2 – البيان والتبيين ،الجاحظ ندار الفكر للجميع ،بيروت لبنان ، ط 1968م.
3- تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، ط02، دار المعارف بمصر، 1975 م،.
4 – تاريخ الأدب القديم ، د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين ،بيروت لبنان، ط05، 1984م.
5- الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب،الإمام محمد أبو زهره، دار الفكر العربي، 1934م.
6- الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي ، د/ شوقي ضيف ،دار المعارف بمصر،ط07، 1946م .
7 – فنّ الخطابة وإعداد الخطيب، علي محفوظ، مكتبة رحاب بور سعيد، الجزائر.
8- الفهرست، ابن النديم، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدم له، د/ يوسف علي أحمد طويل، و وضع فهارسه.أحمد شمس الدين، دار الكتب العامية، بيروت لبنان، ط01، 1416هـ - 1996م.
9 – لسان العرب ، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي مشري ، دار إحياء التّراث العربي، بيروت لبنان،
10- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، د/ محمد عبد الرحمن مرحبا، ديوان المطبوعات الجزائر، ط03، 1983م.
11- النقد الأدب الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، دار الثقافة بيروت لبنان ،1973م.
12- النّقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة ،دار الثقافة، بيروت لبنان،1406هـ - 1986م.

الهوامش والإحالات :

[1] - أساس البلاغة ، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت لبنان، ص: 114.

[2] - لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه على مشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، 4/ 134- 135.

[3] - سورة ص: أ 20.

[4] - سورة النبأ: أ 37.

[5] - فنّ الخطابة وإعداد الخطيب، علي محفوظ، مكتبة رحاب بور سعيد، الجزائر، ص13.

[6] - النقد الأدب الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، دار الثقافة بيروت لبنان ،1973م، ص98.

[7] - الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، الإمام محمد أبو زهره، دار الفكر العربي، 1934م، ص10.

[8] - فنّ الخطابة و إعداد الخطيب، ص20.

[9] - من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية،د/ محمد عبد الرحمن مرحبا، ديوان المطبوعات الجزائر، ط03، 1983م ، ص:94.

[10] - فنّ الخطابة وإعداد الخطيب ، ص16.

[11] - النّقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة ،دار الثقافة بيروت لبنان ،1406هـ - 1986م، ص ،22-23.

[12] - النقد الأدب الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص98.

[13] - النّقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة ، ص24.

[14] – من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، د/ محمد عبد الرحمن مرحبا، ص 160.

[15] – يراجع فنّ الخطابة وإعداد الخطيب ، ص69، النّقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة ، ص 26.

[16] – فن الخطابة ، وإعداد الخطيب ، ص69، و النقد الأدب الحديث ، د/ محمد غنيمي هلال، ص102.

[17] – النقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة ، ص 140.

[18] – النقد الأدب الحديث، د/ محمد غنيمي هلال ص38.

[19] – فن الخطابة، وإعداد الخطيب ص21.

[20] – البيان والتبيين ،الجاحظ ندار الفكر للجميع ، بيروت لبنان ، 1968م،164/1.

[21] – الفهرست، ابن النديم، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدم لهند/ يوسف علي طويل، ووضع فهارسه، أحمد شمس الدين، دار الكتب العامية بيروت لبنان، ط01، 1416هـ - 1996م، ص406، والنّقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة، ص144، وتاريخ الدب العربي العصر العباسي الثاني، ط02، دار المعارف بمصر، 1975م، شوقي ضيف ص526.

[22] – الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي ، د/ شوقي ضيف ،دار المعارف بمصر ،ط1946،07م ، ص27.

[23] – البيان والتبيين 207/1.

[24] – الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي ، د/ شوقي ضيف، ص32.

[25] - فن الخطابة وإعداد الخطيب ص26، وتاريخ الأدب القديم ، د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط05، 1984م، 1/ 256.

[26] - فن الخطابة وإعداد الخطيب ص30.

[27] - فن الخطابة وإعداد الخطيب ص31.

[28] - البيان والتبيين 82/1.

[29] - نفسه 212/1.

[30] - فن الخطابة وإعداد الخطيب ص27.

[31] - البيان والتبيين1/ 209.